الخطيب البغدادي بين المحدثين والفقهاء

للدكتور محمود بن أحمد الطحان

الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين بالرياض

المقدمة :

الحمد لله الذي منّ علينا بحفظ هذا الدين ، وقيّض لحفظه والذب عنه حراساً من الفقهاء والمحدثين ، وجعل المخلصين منهم كالأطباء والصيادلة متعاونين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد القائل « **نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه** » (١) .

وبعد : فإن الحامل لي على اختيار هذا الموضوع والكتابة فيه ما نراه في بعض الأقطار الإسلامية من ظهور صيحات من بعض أهل الحديث ، وبعض أهل الفقه ممن ينتسبون إلى المذاهب الفقهية المشهورة ، هذه الصيحات من كلا الفريقين تنم عن تعصب وتراشق بالتهم وتنابز بالألقاب ، وربما بالغ بعضهم في التعصب أو توجيه التهم حتى يظن من لا علم له بالموضوع أن المعركة بين ملّتين ، أو أن التطاحن بين معسكرين ، ومن المعلوم أنه لا ينبغي هذا الأمر لسببين :

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم والخطيب وأبو نعيم والطيالسي بألفاظ متعددة ومتقاربة ، ورواه من الصحابة أربعة وعشرون صحابياً ، وله أسانيد كثيرة تبلغ حد التواتر والحديث صحيح المتن ، وإن كان بعض أسانيده معلول .

١ – لمخالفته هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقضي أن يكونوا جميعاً متعاونين في حمل لواء هذا الدين .

٢ – ولما فيه من ترك العدو الحقيقي ، وتحويل المعركة إلى صفوف المسلمين .

وهدفي من هذا هو تذكير كلٍ من الفريقين بما ينبغي أن يكون عليه من الحب والمودة لجميع علماء المسلمين ، وتجسيد ذلك التذكير بعَلَم من أعلام المسلمين الذين جمعوا بين الحديث والفقه ، وحملوا لواء التوفيق بين الفريقين بأسلوب حكيم .

كلمة عن حياة الخطيب وعلومه :

ولد الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي في قرية قريبة من بغداد تسمى « دَرْزيجان » وذلك سنة ٣٩٢ هـ ، ونشأ في رعاية والده الذي لم يكن من العلماء المشهورين ، وإنما كان له إلمام بسيط بالعلم ، فقد كان خطيب الجمعة والعيدين بقرية « دَرْزيجان » فبث فيه روح العلم والتقى ، وحبب إليه القرآن ، والعلم وحضور مجالس العلماء ، وما أن صار في سن التمييز حتى دفعه إلى هلال بن عبد الله الطيبي ليعلمه القراءة والكتابة ، فتأدب به ، وتعلم منه القراءة والكتابة وقراءة القرآن ، ولما آنس والده منه أهلية الفهم والحفظ أراد أن يخرجه محدِّثاً ، فبكّر بإرساله إلى جامع المدينة ببغداد لسماع الحديث وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فأسرع الخطيب سنة ثلاث وأربعمائة إلى حلقة ابن رزقويه وجلس فيها ، وكتب عنه إملاءً مجلساً واحداً ، ثم تركه وانقطع عنه ثلاث سنوات ، لأنه أراد أن يبدأ بالفقه ثم يعود إلى الحديث ، فذهب إلى كبار الفقهاء ببغداد في ذلك الوقت ، كأبي حامد الإسفراييني الذي انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي في بغداد ، وأحمد بن محمد المحاملي شيخ الشافعية ببغداد بعد أبي حامد ، وأبي الطيب الطبري وغيرهم ، ثم رجع إلى ابن رزقويه فكتب عنه الحديث ، وهكذا صار يتعلم الفقه

والحديث وغيرهما من العلوم الإسلامية ، ويتثقف التثقيف العام وهو لم يبلغ العشرين من عمره .

ثم فكر بالتخصص في فن واحد من الفنون ، والتمكن في علم واحد من العلوم ، فمالت نفسه إلى التخصص في الحديث وعلومه ، وعرف حق المعرفة أن هذا الميل سيكلفه جهوداً ومشاق جسيمة ، فعرف أن عليه أن يهجر الأهل والولد ، ويترك الأحباب والوطن ، ويتنقل في البلدان مفتشاً عن المحدثين والحفاظ لجمع الحديث من أفواههم . لقد عرف هذا كله ورضي به وعزم على تنفيذه . فبعد أن التقى بجميع محدثي بغداد – على كثرتهم – وأخذ الحديث عنهم ، عزم على الرحلة إلى الأقطار الإسلامية ليجتمع بمحدثيها ، فما أتت سنة ثنتي عشرة وأربعمائة حتى رحل إلى البصرة وعمره إذ ذاك عشرون سنة ، وببدئه في هذه الرحلة تبدأ المرحلة الثانية من مراحل حياته العلمية الثلاث وهي :

المرحلة الأولى : مرحلة بدء الطلب والتثقيف العام والعزم على التخصص في الحديث .

المرحلة الثانية : مرحلة إنشاء الرحلات العلمية وجمع الحديث وتصنيف تاريخ بغداد .

المرحلة الثالثة : مرحلة إخراج المصنفات والتحديث .

وقد قام في هذه المرحلة من حياته بثلاث رحلات علمية زار فيها ثلاث عشرة ناحية ومدينة كانت من أشهر بلاد المسلمين ازدهاراً بالحديث وعلومه في ذلك الوقت ، وهذه الرحلات هي :

الرحلة الأولى : إلى البصرة ، ماراً بالكوفة .

الرحلة الثانية : إلى نيسابور ، ماراً بأصبهان والري وهمذان والدينور والجبال .

الرحلة الثالثة : إلى مكة المكرمة ، ماراً بدمشق وصور والمدينة المنورة والقدس .

وقد التقى خلال تلك الرحلات بكبار المحدثين والحفاظ وأخذ عنهم واستفاد منهم من هؤلاء الحفاظ القاسم بن جعفر الهاشمي راوية السنن ، ومنهم الحافظ أبو نعيم الأصبهاني محدث أصبهان ، ومنهم الحافظة كريمة بنت أحمد المروزية التي كانت مجاورة بمكة المكرمة فالتقى بها وقرأ عليها صحيح البخاري في خمسة أيام ، وكان عمرها إذ ذاك ثمانين سنة ، وكان عندها أعلى سماع لصحيح البخاري في ذلك الوقت ، لأنها سمعته من أبي الهيثم الكُشْميهني .

وكان في هذه المرحلة يجمع الحديث أثناء رحلاته ثم يعود إلى بغداد فيرتب ما جمعه ويهيئه للمصنفات التي يعزم على إخراجها ، لا سيما تاريخ بغداد الذي اشتغل في إعداده وجمع مادته زهاء خمس وعشرين سنة ، وأنهى تصنيفه في هذه المرحلة .

وبعد رحلته الثالثة التي حج فيها بيت الله الحرام ، ورجوعه إلى بغداد سنة ٤٤٦ هـ. تنتهي المرحلة الثانية من حياته ، وهي مرحلة إنشاء الرحلات وجمع الحديث وتصنيف التاريخ .

وتبدأ المرحلة الثالثة من حياته عندما استقر ببغداد عاكفاً على تهذيب ما جمعه مرتباً له واضعاً اللمسات الأخيرة عليه ثم مخرجاً له على شكل مصنفات مفيدة متنوعة محدثاً بها مُمْلياً إياها على تلاميذه وطلاب الحديث .

وهذا محمد بن أحمد المالكي الأندلسي يعدّد في فهرسته مصنفات الخطيب فتبلغ أربعة وخمسين مصنفاً إلى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

وقد أملى كثيراً من كتبه على الناس ، ومنها تاريخه الكبير ، وحدث في هذه الفترة بجامع المنصور ببغداد واشتهر الخطيب بين الناس حتى وصلت شهرته إلى الخليفة ، وكان من حسن حظ الخطيب أن زميلاً من زملائه في العلم والرواية صار وزيراً للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، هذا الزميل هو علي بن الحسن بن

أحمد أبو القاسم المعروف بابن المسلمة ، وقد جرت حادثة سنة سبع وأربعين وأربعمائة مع هذا الوزير ، كان لهذه الحادثة أكبر الأثر في رفع مقام الخطيب وانتشار سمعته ، وهذه الحادثة هي : كما رواها ابن الجوزي في المنتظم فقال : —

« وكان قد أظهر بعض اليهود كتاباً ، وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، وأن خط علي بن أبي طالب فيه ، فعرضه رئيس الرؤساء ابن المسلمة على أبي بكر الخطيب فقال : هذا مزوَّر ، قيل من أين لك ؟ قال في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت في سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وكان قد مات يوم الخندق ، فاستحسن ذلك منه ، واعتمده وأمضاه ، ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره » (١)

وارتفعت منزلة الخطيب عند ابن المسلمة وكبر في عينه كثيراً ، ووثق بدقة علمه ، وتحقيقه فتقدم إلى الخطباء والوعاظ والقُصاص ألاّ يورد أحد منهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يعرضه على أبي بكر الخطيب ، فما أمرهم بإيراده أوردوه ، وما منعهم منه ألْغَوه(٢) . وبذلك صار المرجع الأول في عاصمة الخلافة الإسلامية في الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه .

حادثة البَسَاسيري :

وبقي الخطيب طيب النفس ، قرير العين بما بلغه من أمانيه ، فهو يُمْلي التاريخ في بيته ، ويمْلي الحديث بجامع المنصور ، ويصنف ويهذب إلى أن حدثت فتنة البساسيري ، وهي عبارة عن انقلاب سياسي خطير كاد يطيح بالخلافة العباسية السُّنيّة ، ويحل محلّها الخلافة الفاطمية الباطنية ، واستطار شر هذه الفتنة ، وصُلب

(١) المنتظم ٨/٢٦٥ وتذكرة الحفاظ ٣/١١٤١ . وطبقات الشافعية الكبرى ٤/٣٥ .
(٢) تذكرة الحفاظ ٣/١١٤١ ومعجم الأدباء ٤/١٩ .

فيها ابن المسلمة صديق الخطيب ، ونُفي الخليفة إلى « حديثة عانة » وحُبس هناك ، ودُعي للخليفة الفاطمي يوم الجمعة بجامع المنصور ، وزيد في الأذان « حيّ على خير العمل » فخشي الخطيب أن تُدبّر له مؤامرة ، ويُوشى به لدى البساسيري عميل الفاطميين للقضاء عليه ، وليس له في ذلك الوقت حول ولا قوة ، والبلاد في فتنة تموج كموج البحر ، فقرر الهجرة إلى دمشق والمقام فيها ، ولم يعلمه ذلك خشية منعه أو البطش به ، فخرج متخفياً مصطحباً كتبه قاصداً دمشق وذلك سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، فوصلها سالماً ، ولما وصل إلى دمشق اتخذ المئذنة الشرقية من الجامع الأموي مسكناً له ، وبدأ التدريس في نفس المسجد ، وصارت له حلقة كبيرة يجتمع إليه الناس فيها كل يوم فيحدثهم بعامة كتبه ، والكتب التي رواها عن شيوخه .

ويطيب له المُقام في دمشق ويبقى فيها مدة طويلة تقارب ثماني سنوات ، لكنّ القدر يعود ليفاجأه بمصيبة أخرى — وهكذا العلماء والدعاة يُمتحنون — فقد كان يقرأ فيما يقرأ على الناس كتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وكتاب فضائل العباس لابن رزقويه ، فسمع بذلك الروافض وكانت لهم شوكة لأن البلاد في ذلك الوقت تابعة لحكم الفاطميين في مصر ، فثاروا عليه وأرادوا قتله ، فاستجار ببعض الأشراف فأجاره على أن يخرج من دمشق ، فخرج منها إلى صور(١) وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة على الراجح .

واختار مدينة صور لما فيها من العلماء والمحدثين وطلبة الحديث ، فحدث فيها وروى بعض كتبه ، وأثناء إقامته بصور كان يتردد على بيت المقدس للزيارة (٢) .

ولما بلغ سبعين سنة وشاخ وشعر بقرب أجله عزم على العودة إلى بغداد ، وكان

---

(١) البداية لابن كثير ١٠١/١٢ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١١٤٢/٣ .

قد رجع الأمرُ فيها إلى العباسيين ، فخرج من صور سنة ٤٦٢ هـ بصحبة بعض إخوانه فمر بطرابلس وحلب ، فمكث في كل منهما أياماً التقى فيها ببعض الشيوخ وسمع منهم ، ثم توجه إلى بغداد فوصلها في ذي الحجة من سنة ٤٦٢ هـ ، وكان ورده في الطريق في كل يوم ختمة من القرآن (١) ولما وصل الخطيب إلى بغداد فرح بوصوله إليها سالماً بعد فراق لها دام إحدى عشرة سنة ، واستأنف دروسه وتحديثه في جامع المنصور ، وفي نصف رمضان من سنة ٤٦٣ هـ مرض ثم اشتد مرضه فتوفي في ضحى الاثنين سبع ذي الحجة من سنة ٤٦٣ هـ رحمه الله رحمة واسعة ، وبوفاته طويت صفحة من صفحات العلم الحافلة بالتحقيق والتصنيف والتوفيق بين العلماء فجزاه الله عن المسلمين أفضل الجزاء .

كلمة عامة عن مصنفات الخطيب وذكر أشهرها :

لقد كان الخطيب أحد الأئمة المكثرين في التصنيف ، المجيدين له ، البارعين فيه ، ولقد اشتهر بتلك التصانيف حتى عُرف بها ، فقد عَرَّفه كثير ممّن ترجم له بقوله : « **صاحب التصانيف المنتشرة** » (٢) وقد وصفه الحافظ ابن عساكر بقوله : « **أحد الأئمة المشهورين والمصنفين المكثرين** (٣) » كما وصفه أبو غالب شجاع الذهلي بقوله : « **إمام مصنف حافظ** » (٤) وقال ابن الجوزي فيه « **وصنف الكتب الحسان البعيدة المثل** » (٥) وقال في معرض الكلام عن مصنفاته : « **ومن نظر فيها عرف قدر الرجل وما هُيىء له مما لم يُهيأ لمن كان أحفظ منه كالدارقطني وغيره** (٦) .

(١) تذكرة الحفاظ ١١٣٩/٣ .
(٢) تذكرة الحفاظ ١١٣٥/٣ وطبقات الشافعية الكبرى ٣٠/٤ .
(٣) تاريخ دمشق ٣٩٨/١ .
(٤) تاريخ ابن قاضي شهبة ورقة ١٣٩ الوجه الثاني (مخطوط) .
(٥) ذكر كبار الحفاظ لابن الجوزي ، ورقة ١٣٦ الوجه الأول (مخطوط) .
(٦) المنتظم ٢٦٦/٨ .

وقد بلغت مصنفاته ثمانين مصنفاً ما بين كبير وصغير ، والذي وصل إلينا — في حدود اطلاعي — هو أربعة وعشرون مصنفاً ، طبع منها حتى الآن اثنا عشر كتاباً ، والباقي لا زال مخطوطاً ، وقد تناولتْ مصنفاته عدداً من العلوم والفنون ولكن أغلبها كان يدور على محور الحديث وعلومه ورجاله والفقه ، ويعتبر إماماً في علوم الحديث بلا منازع ، وأشهر المصنفات التي وصلت إلينا هي :

١ — تاريخ بغداد في أربعة عشر مجلداً .

٢ — الكفاية في علم الرواية في مجلد واحد .

٣ — موضح أوهام الجمع والتفريق في مجلدين .

٤ — شرف أصحاب الحديث في جزء .

٥ — الفقيه والمتفقه في مجلد .

٦ — نصيحة أهل الحديث في جزء صغير .

٧ — الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع . في خمسة عشر جزءاً حديثياً .

٨ — المتفق والمفترق في مجلد كبير .

٩ — السابق واللاحق . في جزء

١٠ — تقييد العلم . في ثلاثة أجزاء .

— حمله لواء التوفيق بين المحدثين والفقهاء ومَدْحُهُ لكل منهم —

هل الخطيب محدِّث أو فقيه ؟

إذا نظر الباحث في شخصية الخطيب وعلومه التي جَوَّدَ فيها ، ومصنفاته التي أكثر من التصنيف فيها خرج بنتيجة هي أنه محدث وفقيه ، لكن ما هي الصفة الغالبة عليه منهما ؟ لقد درس الخطيب الفقه وصنف فيه وتمكن منه حتى صار فقيهاً ، وكان من كبار فقهاء الشافعية ، ثم درس الحديث وعلومه ، وتاريخ الرجال ، وتخصص فيهما حتى غلبا عليه ، فكان كما قال عنه ابن خلكان : « **كان فقيهاً**

فغلب عليه الحديث والتاريخ » (١) . إذن فالغالب على الخطيب صفة المحدِّث ، وإن كان له باع طويل في الفقه .

مما تقدم ينكشف لنا السر في حمل الخطيب لواء التوفيق بين المحدثين والفقهاء ، لأنه درس العِلْمَيْن ، وتمرَّس فيهما ، وعرف أصولهما وفروعهما ، ومن كان بهذه الصفة عرف قيمة العِلْمين وعرف قدر من تخصص في أيٍّ منهما . لأنه توصل إلى ذلك بالطريقة العملية التجريبية فأدرك قَدْر المحدثين وفضلهم بسبب ما تحملوه في جمع الحديث وترتيبه وتبويبه ، وبيان صحيحه من سقيمه ، والكلام على رجال إسناده ، خدمة للمسلمين ومَنْ مِن الفقهاء ينكر فضل المحدثين في هذا الجهد الكبير .

كما أدرك قدر الفقهاء وفضلهم بما تحملوه من إعمال الفكر وبذل الجهد لاستخراج قواعد الاستنباط التي بنوا عليها الأحكام الفرعية المستنبطة من الحديث الشريف .

وجهد الفريقين لا يقدره حق قدره إلا من مارسه ، وعرف طرقه الشائكة بالتجربة ، والخطيب فارس هذا الميدان .

والظاهر أن نُفْرَةً مُصْطَنَعَةً يُثيرها بين المحدثين والفقهاء من القديم بعضُ صغار المتفقهة وكتبة الحديث لضيق أفقهم ولقصر نظرهم ، وذلك بتبادل الغمزات والطعون بين الفريقين وربما كان عن حسن نية منهم ، لكن بدون إدراك لحقيقة ما عليه الفريق الموجه إليه الغمز أو الطعن .

ولو تُرك الأمر لاتسعت النُفْرة بين الفريقين ولأدى إلى ما لا يحمد عُقْباه بين طائفتين من خيار علماء المسلمين ، لذلك فقد كان يقوم إمام من أئمة الحديث أو الفقه بنصيحة أولئك الأتباع المتشددين من الفريقين كلما ظهرت صيحات الطعن واللمز التي تثير النُفْرة والقطيعة بين الطرفين .

---

(١) وفيات الأعيان ٧٦/١ .

وكان الخطيب من أبرز هؤلاء الأئمة الذين حملوا لواء التوفيق بين الفريقين ، وقدموا النصيحة لأهل الحديث وأهل الفقه بأن يُجلّوا بعضهم ، ويستفيد كل منهم مما عند الآخر ويجالسه ، وبينوا لهم أن كلاً من الفريقين له الفضل الكبير ، وأن عليهم أن يتعاونوا على حمل قول النبي صلى الله عليه وسلم وفهمه فكل ميسر لما خلق له .

ويظهر ذلك في كثير من كتبه وأبحاثه ، لكن أشهر تلك الكتب التي ظهر فيها ذلك بإسهاب ووضوح ثلاثة من كتبه وهي :

١ ـ كتاب « الفقيه والمتفقه » .

٢ ـ كتاب « نصيحة أهل الحديث » .

٣ ـ كتاب « شرف أصحاب الحديث » .

وسأذكر بعض النصوص التي ذكرها الخطيب في هذه الكتب الثلاثة تباعاً .

١ ـ نصوص من كتاب « الفقيه والمتفقه » :

قال الخطيب رحمه الله تعالى في باب : إن مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر « وقد جعل الله العلم وسائل أوليائه ، وعصم به من اختاره من أصفيائه ، فحقيق على المتوسم به استفراغ المجهود في طلبه . وأهل العلم في حفظه متقاربون ، وفي استنباط فقهه متباينون ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ـ وذكر الخطيب الاسناد ـ نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » ثم قال : فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه قد يحمل الحديث من يكون له حافظاً ولا يكون فيه فقيهاً ، وأكثر كَتَبَة الحديث في هذا الزمان بعيد من حفظه ، خالٍ من معرفة فقهه ، لا يفرقون بين معلل وصحيح ، ولا يميزون ما بين معدَّل من

الرواة ومجروح ، ولا يسألون عن لفظ أشكل عليهم رسمه ، ولا يبحثون عن معنى خفي عنهم علمه ، مع أنهم قد أذهبوا في كَتْبه أعمارهم ، وبعدتْ في الرحلة لسماعه أسفارهم ، فجعلوا لأهل البدع من المتكلمين ، ومن غلب عليه الرأي من المتفقهين طريقاً إلى الطعن على أهل الآثار ، ومن شغل فيه بسماع الأحاديث والأخبار حتى وصفوهم بضروب الجهالات ، ونبذوهم بأسوأ المقالات ، وأطلقوا ألسنتهم بسبهم ، وتظاهروا بعيب المتقدمين وثلبهم ، وضربوا لهم المثل بقول الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم   بجيدها إلا كعلم الأباعـــر

لعمرك ما يدري المَطيُّ إذا غدا   بأحماله أو راح ما في الغرائر

كل ذلك لقلة بصيرة أهل زماننا بما جمعوه ، وعدم فقههم بما كتبوه وسمعوه ، ومنعهم نفوسهم عن محاضرة الفقهاء ، وذمهم مستعملي القياس من العلماء ، ولسماعهم الأحاديث التي تعلق بها أهل الظاهر في ذم الرأي والنهي عنه والتحذير منه ، وأنهم لم يميزوا بين محمود الرأي ومذمومه ، بل سبق إلى نفوسهم أنه محظور على عمومه ، ثم قلدوا مستعملي الرأي في نوازلهم ، وعولوا فيها على أقوالهم ومذاهبهم ، فنقضوا بذلك ما أحلوه ، واستحلوا ما كانوا حرموه ، وحق لمن كانت حاله هذه أن يُطلق فيه القول الفظيع ، ويشنع عليه بضروب التشنيع (١)

ثم ذكر الخطيب أنه اغتمَّ بسبب ذلك لأمرين :

أولهما : قصد هؤلاء الطاعنين الوقوع في المتقدمين من أئمة الحديث القائمين بحفظ السنة .

ثانيهما : ازدراؤهم كتبة الحديث المشتغلين به في زمن الخطيب فإنهم وإن لم يكن

---

(١) الفقيه والمتفقه : ٢/٧١ – ٧٣ .

عندهم علم ما يجمعونه من الحديث إلا أن لهم حرمة يجب أن تُرعى لاشتغالهم بنقل الحديث ولدخولهم تحت حديث « نضر الله » .

وفي نص آخر من هذا الكتاب ينصح الخطيب أصحاب الحديث خاصة وغيرهم من طلبة العلم عامة فيقول : .

« ورسمت في هذا الكتاب لصاحب الحديث خاصة ، ولغيره عامة . ما أقوله نصيحة مني له ، وغيرة عليه ، وهو أن يتميز عمن رضي لنفسه بالجهل ، ولم يكن فيه معنى يلحقه بأهل الفضل ، وينظر فيما أذهب فيه معظم وقته وقطع به أكثر عمره من كتبْ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعه ، ويبحث عن علم ما أُمر به من معرفة حلاله وحرامه وخاصه وعامه ، وفرضه وندبه ، وإباحته وخطره ، وناسخه ومنسوخه وغير ذلك من أنواع علومه قبل فوات إدراك ذاك فيه»(١)

ففي هذا النص ينصح الخطيب كتبة الحديث والمنتسبين إليه بأن يقلّوا من الرواية والتكاثر في تتبعْ الأسانيد ، ويشتغلوا بفقه الحديث من معرفة حلاله وحرامه وخاصه وعامه وناسخه ومنسوخه فإن رواية الحديث بدون التفقه فيه لا تعلمه الحلال والحرام ولا الواجب والمندوب .

هذا وقد ساق الخطيب نصوصاً في مقدمة هذا الكتاب وفصوله الأولى ، في مدح الفقه والفقهاء ، وأنهم حراس الشريعة ، وأن مجالس الفقه هي مجالس الذكر ، وأن حِلَق الفقه هي رياض الجنة ، وأن الفقه أفضل من كثير من العبادات ، وأن الفقهاء أفضل من العُبّاد ، وأن فقيهاً واحداً أشد على الشيطان من ألف عابد ، وذكر أبواباً في فضل الفقهوالفقهاء تقارب خمسين صفحة ، أجتزيء منها ما يلي :

قال في مقدمة الكتاب « ... وجعل شريعته مؤيدة إلى يوم الدين ، ووكل بحفظها من الصحابة والتابعين من تقوم به الحجة ، وترتفع بقوله الشبهة ، وهم الفقهاء

(١) الفقيه والمتفقه : ٢/٧٧ – ٧٨ .

الذين ألزمهم حراسة شريعته ، والتفقه في دينه ، فقال تبارك وتعالى « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » وقال سبحانه :

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (١)

ثم ذكر في تأويل قوله تعالى « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** » عن جابر بن عبد الله ومجاهد أن أولي الأمر هم الفقهاء (٢)

ثم ذكر في فصل « **ذكر أحاديث وأخبار شتى يدل جميعها على جلالة الفقه والفقهاء** » قوله صلى الله عليه وسلم « **الأنبياء قادة ، والفقهاء سادة ، ومجالستهم زيادة** » (٣) ثم ذكر قوله صلى الله عليه وسلم « **أفضل العلم الذي يحتاج إليه الناس** » ثم قال : « **قلت وأعظم مابالناس الحاجة إليه من العلوم الفقه ، فلاعلم أفضل منه** » (٤) .

ثم ساق بسنده إلى الإمام أبي حنيفة أنه قال : « **إن لم يكن أولياء الله في الدنيا والآخرة الفقهاء والعلماء فليس لله ولي** » (٥) وساق بسنده إلى الإمام الشافعي أنه قال : « **إن لم يكن الفقهاء أولياء الله في الآخرة فما لله ولي** » (٦)

٢ ـ نصوص من جزء « نصيحة أهل الحديث » :

قال الخطيب : « **وليعلم أن الإكثار من كَتْب الحديث وروايته لا يُصَيِّرُ الرجل فقيها ، وإنما يتفقه باستنباط معانيه ، وإنعام النظر فيه** » (٧)

(١) الفقيه والمتفقه : ١/١ .
(٢) المصدر السابق : ٢٧/١ .
(٣) المصدر السابق : ٣٢/١ .
(٤) المصدر السابق : ٣٣/١ .
(٥) المصدر السابق : ٣٥/١ .
(٦) المصدر السابق : ٣٦/١ .
(٧) نصيحة أهل الحديث : ص ٣ .

ثم ساق بإسناده « أن امرأة وقفت على مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة وخلف بن سالم في جماعة يتذاكرون الحديث ، فسمعتهم يقولون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد رواه فلان ، وما حدث به غير فلان ، فسألتهم عن الحائض تغسل الموتى — وكانت غاسلة — فلم يجبها أحد منهم ، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ، فأقبل أبو ثور ، فقالوا لها : عليك بالمقبل ، فالتفتت إليه وقد دنا منها ، فسألته ، فقال : نعم تغسل الميت ، لحديث القاسم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : إن حيضتك ليست في يدك ، ولقولها : كنت أفرق رأس النبي صلى الله عليه وسلم وأنا حائض . قال أبو ثور : فإذا فرقت رأس الحي ، فالميت أولى ، فقالوا : نعم رواه فلان ، وحدثنا فلان ، ويعرفونه من طريق كذا وخاضوا في الطرق ، فقالت المرأة : فأين كنتم إلى الآن ؟ » (١)

ثم قال الخطيب معلقاً على هذه القصة بقوله : « وإنما أسرعت ألسنة المخالفين إلى الطعن على المحدثين لجهلهم أصول الفقه وأدلته في ضمن السنن مع عدم معرفتهم بمواضعها ، فإذا عُرِف صاحب الحديث بالتفقه خرست عنه الألسن ، وعظم محلُّه في الصدور والأعين ، وخشي من كان عليه يطعن » (٢) .

ثم ساق بإسناده إلى عبيد الله بن عمرو قال : « جاء رجل إلى الأعمش فسأله عن مسألة وأبو حنيفة جالس ، فقال الأعمش يا نعمان قل فيها فأجابه ، فقال الأعمش : من أين قلت هذا ؟ فقال : من حديثك الذي حَدَّثْتَنَاهُ . قال : نعم ، نحن صيادلة ، وأنتم أطباء . وساق بسنده إلى عبيد الله بن عمرو أيضاً أنه قال : « كنا عند الأعمش وهو يسأل أبا حنيفة عن مسائل ، ويجيبه أبو حنيفة ، فيقول له الأعمش : من أين لك هذا ؟ فيقول أنت حدثتنا عن إبراهيم بكذا ، حدثتنا

---

(١) المصدر السابق : ص ٤ .

(٢) نصيحة أهل الحديث : ص ٤ .

عن الشعبي بكذا ، قال فكان الأعمش بعد ذلك يقول : يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة » (١)

٣ ــ نصوص من كتاب « شرف أصحاب الحديث » :

يظهر من مقدمة هذا الكتاب وفصوله أن الخطيب رحمه الله تعالى صنفه ليرد على المبتدعة من غُلاة المعتزلة وغيرهم الذين يتركون الاحتجاج بالسنن ، ويحكّمون عقولهم وآراءهم في الدين ويطعنون في المحدثين ويستهزءون بهم ، فأراد أن يبين لهم فضل أصحاب الحديث وشرفهم في حملهم السنة وحفظها وتبليغها والذب عنها ، ولقد أجاد في هذا الكتاب ووُفق للصواب في الرد على المبتدعة وألقمهم الحجر وأثبت فضل المحدثين وشرفهم بما لا يدع مجالاً للشك ، ومن يشك في فضل المحدثين وشرفهم إلا كل مبتدع خبيث ؟ .

أما مقدمة الكتاب فقد قال الخطيب فيها بعد حمد الله والصلاة على نبيه : « أما بعد وفقكم الله لعمل الخيرات ، وعصمنا وإياكم من اقتحام البدع والشبهات . فقد وقفنا على ما ذكرتم من عيب المبتدعة أهل السنن والآثار ، وطعنهم على من شغل نفسه بسماع الأحاديث وحفظ الأخبار ، وتكذيبهم بصحيح ما نقله إلى الأمة الأئمة الصادقون ، واستهزائهم بأهل الحق فيما وضعه عليهم الملحدون ، الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، وليس ذاك عجيباً من متّبعي الهوى ، ومن أضلهم الله عن سلوك سبيل الهدى ، ومن واضح شأنهم الدال على خذلانهم صدوفُهم عن النظر في أحكام القرآن ، وتركُهم الحجاج بآياته الواضحة البرهان ، واطّراحهم السنن من ورائهم وتحكمهم في الدين بآرائهم . فالحَدَث منهم منهوم بالغزل وذو السنّ مفتون بالكلام والجدل ... إلى أن قال : ثم هو يفتخر على العوام بذهاب عمره في درس الكلام ، ويرى جميعهم ضالين سواه ، ويعتقد أن ليس ينجو

(٢) المصدر السابق ص ٥ ــ ٦ .

إلا إياه ، لخروجه بزعمه عن حد التقليد ، وانتسابه إلى القول بالعدل والتوحيد ، وتوحيده إذا اعتبر كان شركا وإلحاداً ، لأنه يجعل لله من خلقه شركاء وأنداداً ، وعدله عدول عن نهج الصواب إلى خلاف محكم السنة والكتاب » (١) فهذا الكلام واضح أنه يعني بالذين يطعنون على أهل الحديث إنما هم المعتزلة .

ثم قال بعد أن ساق عدة آثار عن السلف في تقبيح شأن أهل الهوى والرأي المذموم : « ولو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه بما ينفعه من العلوم ، وطلب سنن رسول رب العالمين ، واقتفى آثار الفقهاء والمحدثين لوجد في ذلك ما يغنيه عما سواه ، واكتفى بالأثر عن رأيه الذي رآه ، لأن الحديث يشتمل على معرفة أصول التوحيد ، وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد ... إلى أن قال : وفيه تفسير القرآن العظيم وما فيه من النبأ والذكر الحكيم ، وأقاويل الصحابة في الأحكام المحفوظة عنهم ، وتسمية من ذهب إلى قول كل واحد منهم من الأئمة المخالفين ، والأئمة المجتهدين ، وقد جعل الله تعالى أهله أركان الشريعة وهدم بهم كل بدعة شنيعة ، فهم أُمنَاء الله من خليقته ، والواسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته والمجتهدون في حفظ ملته ، أنوارُهم زاهرة ، وفضائلهم سائرة ، وآياتهم باهرة ، ومذاهبهم ظاهرة وحججهم قاهرة ... » (٢)

ثم استشهد بعد ذلك برؤيا لبعض الناس في مدح أصحاب الحديث ، وذم المعتزلة ، فساق بسنده عن رجل « أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وكان النبي صلى الله عليه وسلم قائماً في المسجد بين حلقتين ، في إحداهما أحمد بن حنبل ، وفي الأخرى ابن أبي دؤاد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : فإن يكفر بها هؤلاء ـ وأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابن أبي دؤاد وأصحابه ـ فقد وكلنا بها

(١) شرف أصحاب الحديث ص ٣ – ٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ٧ – ٩ .

قوماً ليسوا بها بكافرين – وأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحمد بن حنبل وأصحابه » (١)

ثم روى أحاديث في وجوب تبليغ الحديث للدلالة على أن أصحاب الحديث هم الذين قاموا بمهمة التبليغ فروى حديث « **ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع** » (٢) وروى أحاديث في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بالنضارة لمن سمع منه الحديث فوعاه ونقله إلى غيره إشارة إلى شرف أصحاب الحديث الذين نالتهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم هذه ، لأنهم هم الذين يسمعون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فيعونها وينقلونها إلى غيرهم ، فساق بسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه كما سمعه فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه** » (٣) .

ثم روى عن الصحابة وبعض أئمة السلف آثاراً تدل على أنهم لا يشجعون كثرة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بين وجه هذه الآثار كيلا يتمسك بها أهل الأهواء والبدع ، ولنستمع إلى هذا الأثر عن عمر بن الخطاب أنه عندما شَيّعَ قَرَظَة ومن معه قال لهم : « **إنكم تأتون بلدة لأهلها دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم**»(٤) ثم عقب على ذلك بقوله « إن قال قائل : ما وجه إنكار عمر على الصحابة روايتُهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديده عليهم في ذلك ؟ قيل له : إنما فعل ذلك عمر احتياطاً للدين وحسنَ نظر للمسلمين ، لأنه خاف أن يَنْكلوا عن الأعمال ، ويتّكلوا على ظاهر الأخبار ، وليس حكم جميع الأحاديث على ظاهرها ، ولا كل

(١) المصدر السابق ص ١١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦ .
(٣) المصدر السابق ص ١٨ .
(٤) شرف أصحاب الحديث ص ٨٨ .

من سمعها عرف فقهها ، فقد يرد الحديث مجملاً ويستنبط معناه وتفسيره من غيره ، فخشي عمر أن يحمل حديث على غير وجهه ، أو يُؤخذ بظاهر لفظه ، والحكمُ بخلاف ما أخذ به » (١)

ولنستمع أيضاً إلى تعليقه على الآثار التي ساقها بسنده عن المغيرة بن مِقْسمَ وشعبة بن الحجاج وسفيان الثوري ومالك بن أنس وعبد الله بن إدريس وغيرهم والتي يدل ظاهرها أنهم يثبطون عن طلب الحديث والإكثار منه فقال : « إنما كره مالك وابن إدريس وغيرهما الإكثار من طلب الأسانيد الغريبة ، والطرق المستنكرة كأسانيد حديث الطائر ، وطرق حديث المِغْفَر ، وغسل الجمعة ، وقبض العلم ، وإن أهل الدرجات ، ومن كذب عليّ ، ولا نكاح إلا بولي وغير ذلك مما يَتَتَبّعُ أصحابَ الحديث طرقَه ، ويُعنَون بجمعه ، والصحيح من طرقه أقلها . وأكثر من يجمع ذلك الأحداث منهم ، فيحفظونها ويذاكرون بها ، ولعل أحدهم لا يعرف من الصحاح حديثاً ، وتراه يذكر من الطرق الغريبة والأسانيد العجيبة التي أكثرها موضوع وجُلُّها مصنوع مالا يُنْتَفعُ به ، وقد أذهب من عمره جزءاً في طلبه ، وهذه العلة (٢) هي التي اقتطعت أكثر مَن في عصرنا من طلبة الحديث عن التفقه به ، واستنباط ما فيه من الأحكام ، وقد فعل متفقهة زماننا كفعلهم ، وسلكوا في ذلك سبيلهم ، ورغبوا عن سماع السنن من المحدثين ، وشغلوا أنفسهم بتصانيف المتكلمين ، فكلا الطائفتين ضيّع ما يعنيه ، وأقبل على مالا فائدة له فيه » (٣)

هذا وقد سبق الخطيب إلى هذا الأمر من توجيه النصيحة للفريقين وإثبات فضلهم جميعاً عدد من العلماء منهم القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي

---

(١) المصدر السابق ص ٨٩ .
(٢) أي التكثر في الأسانيد وتتبع الطرق ، وجمع الغرائب والشواذ من الأحاديث .
(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٢٩ — ١٣٠ .

المتوفى سنة ٣٦٠ هـ فقد أشار إلى ذلك في أوائل كتابه المشهور « **المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي** » في معرض ذكره لحديث « **نضر الله امرأ** » فقد قال رحمه الله : « **ففرق النبي صلى الله عليه وسلم بين ناقل السنة وواعيها ، ودل على فضل الواعي بقوله : « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه غير فقيه** » وبوجوب الفضل لأحدهما يثبت الفضل للآخر ، مثال ذلك أن تمثل بين مالك بن أنس وعبيد الله العُمَري ، وبين الشافعي وعبد الرحمن بن مهدي ، وبين أبي ثور وابن أبي شيبة ، فإن الحق يقودك إلى أن تقضي لكل واحد منهم بالفضل ، وهذا طريق الإنصاف لمن سلكه ، وعَلَمُ الحق لمن أمّهُ ولم يتَعَدَّهُ » (١) .

وممن سبقه إلى ذلك أيضاً أبو سليمان حَمْدُ بن محمد الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ في كتابه النافع « معالم السنن » فقد قال في مقدمة هذا الكتاب كلاماً نفيساً جديراً بالعناية والانتفاع به ، قال رحمه الله :

« ورأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين ، وانقسموا إلى فرقتين ، أصحاب حديث وأثر وأهل فقه ونظر . وكل واحدة منهما لا تتميز عن أختها في الحاجة ، ولا نستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة ، لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل ، والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع ، وكل بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار ، وكل أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب ، ووجدت هذين الفريقين – على ما بينهم من التداني في المَحَلَّيْن ، والتقارب في المنزلتين ، وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض ، وشمول الفاقة اللازمة لـكل منهم إلى صاحبه – إخواناً متهاجرين ، وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين .

فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الأثر والحديث ، فإن الأكثرين منهم إنما وَكْدُهم

(١) المحدث الفاصل ص ١٦٩ – ١٧٠ .

الروايات وجمع الطرق ، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب ، لا يراعون المتون ، ولا يفقهون المعاني ، ولا يستنبطون سيرها ، ولا يستخرجون ركازها وفقهها ، وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن ، وادعوا عليهم مخالفة السنن ، ولا يعلمون أنهم عن مبلغ ما أوتوه من العلم قاصرون وبسوء القول فيهم آثمون » .

وأما الطبقة الأخرى – وهم أهل الفقه والنظر – فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقلِّه ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه ، ولا يعرفون جيده من رديئه ، ولا يعبأون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها ، ووافق أراؤهم التي يعتقدونها » (١) .

هذا وقد رأيت أن التعليق على جميع النصوص التي سقتها قد يطيل الكلام ، لا سيما وأن كثيرا منها لا يخفى على القراء ، لذا رأيت أن أذكر أبرز النقاط التي اشتملت عليها تلك النصوص من نصيحة أهل الحديث وأهل الفقه ، وبيان فضل كلٍ من الفريقين ، وهذه النقاط هي :

ملخص نصوص الخطيب :

١ – أن الفضل الكبير ثابت لكل من المحدثين والفقهاء ، والمشتغلين بالحديث والفقه . لأن الفريق الأول قام بجمع السنة وضبطها ونقلها وتمييز صحيحها من سقيمها ، ولأن الفريق الثاني عُني بفهمها واستنباط ما فيها من أحكام لتكون تشريعاً للمسلمين ، وأن كل فريق منهما بحاجة إلى ما عند الفريق الآخر .

٢ – أنه قد يحمل الحديث من يكون له حافظاً ، ولا يكون فيه فقيهاً .

٣ – أن الإكثار من كَتْب الحديث وروايته لا يُصَيِّرُ الرجلَ فقيها .

(١) معالم السنن : ١/٥ ٧ .

٤ ـ أن كثيراً من كَتَبَة الحديث والمشتغلين به ليس همهم إلا جمع الحديث ، والتكاثر بالأسانيد بدون التعريج على فهمه أو معرفة صحيحه من سقيمه ، وهذا هو الذي جَرَّ بعض المتفقهة إلى الطعن فيهم وفي المحدثين .

٥ ـ أن بعض المتفقهين لا يعرجون في استنباطاتهم على الحديث والآثار ، وهذا الرأي جر بعض المشتغلين بالحديث إلى الطعن فيهم وفي الفقهاء .

٦ ـ أن الخطيب ينصح أصحاب الحديث بأن يهتموا بفقه الحديث ، وذلك بأن ينعموا النظر فيما جمعوه ، كما ينصحهم بمجالسة الفقهاء والاستفادة من مواهبهم ، وينصحهم أيضاً بألا يذموا مستعملي القياس من الفقهاء ، وأن يميزوا بين محمود الرأي ومذمومه ، وبين القياس الصحيح والقياس الفاسد .

٧ ـ أن الخطيب ينصح المتفقهة بأن يعتنوا بالحديث ، ويعولوا عليه في استنباطاتهم ، ويعرفوا صحيحه من سقيمه كما ينصحهم بألاّ يرغبوا عن سماع السنن من المحدثين ، وألاّ يصفوهم بأنهم أغْمار ، وحملة أسفار .

٨ ـ أن الخطيب لم يقصد بنصيحته أو تأنيبه أئمة المسلمين من الفقهاء والمحدثين ، وإنما قصد أتباع الفريقين من المتفقهة وكتبة الحديث الذين تعصبوا تعصباً لا يرضى به الأئمة من الفقهاء والمحدثين .

الخاتمة :

وأختم كلامي بما أشرت إليه أولاً في المقدمة من أن هدفي من هذه الكلمة هو تذكير الفريقين بما ينبغي أن يكون عليه كل منهم فأقول :

إنه لمما يَحزُ في النفس ويؤلمها كثيراً أن يرى المسلم وبخاصة طالب العلم هذه النُّفْرَةَ المقيتة وهذا التنابز بالألقاب بين طائفتين من خيار علماء المسلمين لا سيما وأن كل طائفة منهم في حاجة ماسة للطائفة الأخرى ، وأن ما عند هذه من العلم

يكمل ما عند تلك ، وأن كلا من الطائفتين يسعى لغاية واحدة ، وينبغي فيما يبذله من الجهد المشقة رضا الله تعالى ، فبدل أن يكونوا إخواناً متحابين ، وعلى سبيل الحق متعاونين متناصرين ، وإذ بهم صاروا أحزاباً متهاجرين ، وفي سبيل وصولهم للغاية الواحدة متناحرين ، وغير متظاهرين .

وإني لأعجب كل العجب من هذا الوضع غير السويّ . فهل سمع أحدنا أن نفرة أو قطيعة حصلت بين مهندسين وبنائين ، أو بين صيادلة وأطباء ؟ ليت شعري إذن كيف حصل هذا ولا يزال يحصل بين طائفتين من علماء المسلمين يقرع سمعتهم صباحاً ومساءً حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم « **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً** » فأين هذا الشد ؟ بل أين هذا البنيان المتماسك الذي يجعل صرح الإسلام قوياً أمام تيارات الإلحاد العاصفة وشبهات الكافرين المشككة ؟ لا شك أن هذا الوضع ليس فيه مصلحة للمسلمين ، ولا للفقهاء والمحدثين ، هذا وإن كان هناك وجهة نظر لأحد الفريقين في الفريق الآخر فلا بأس بإسداء النصح له بمنتهى اللطف واللين . فكل إنسان يوجد فيه شيء من القصور في بعض الأمور ، أما هذا الشكل من التحزب فغير مقبول بل غير جائز شرعاً مهما التمستْ له المبررات ، لا سيما في هذا العصر الذي تكاتفت فيه جميع قوى الشر على الإسلام والمسلمين ، فينبغي أن تحصر وجهات النظر فيما بين علماء المسلمين في حدود ضيقة جداً ، وأن تتآزر جهود علماء المسلمين وفي مقدمتهم الفقهاء والمحدثون ، لصد الباطل ودحض الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام حول الشريعة الإسلامية السمحة ، ولا يجوز أبداً تحويل المعركة – عن قصد أو غير قصد – التي يجب أن تكون بين حملة الشريعة وبين الكافرين إلى عداء بين علماء المسلمين ، بل الواجب يحتم على حملة الشريعة أن يكونوا على ذكر دائم من قوله تعالى « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** » .

وأخيراً أتوجه إلى علماء المسلمين عامة ، وإلى العلماء المشتغلين بالحديث والفقه خاصة أن يعملوا بإخلاص على إزالة هذه النُفْرة بين أهل الفقه وأهل الحديث، أو بعبارة أوضح بين المتعصبين من أهل الفقه وأهل الحديث ، وبخاصة إذا كانوا في مكان توجد فيه هذه النفرة ، وأناشدهم الله ألا يُذْكوا نارها لئلا يصطلي المسلمون بأوارها ، فكثير منا يعلم ما بين الفريقين الآن في بعض بقاع الإسلام كالهند والباكستان وغيرهما من بلاد المسلمين .

والله أسأل بأسمائه الحسنى وصفاته أن يلهمنا ويلهم علماء المسلمين الحكمة في جمع طلبة العلم حول هذا الدين وتشريعه الحنيف ، وألا يُشغلوهم عن الهدف الحقيقي والعدو الحقيقي . لعل الله يجعل منهم جبهة متماسكة ضد أعداء المسلمين ، إنه نعم المولى ونعم النصير . وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

د . محمود أحمد الطحان

الأستاذ المشارك